أيها الرواد!

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

obeikandl.com

obeikandl.com

حينَ تسلَّلَ محمدٌ أبوطالب خارجًا من المغرب إلى أميركا لم يكنْ يُدْرِكُ أنه يرتكبُ جريمةً! جريمةً لا تُغْتَفَرُ في حقِّ الهيمنةِ الثقافيةِ الاستعماريةِ الفرنسية. كان يستجيبُ بغريزته لنداءٍ غامضِ الأهداف، ولكنه قويٌّ واضحٌ. كان كالنحلة في الآية الكريمة: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا** ﴾.

بعد حصولهِ على الشهادةِ الثانويَّةِ باللغة الفرنسيةِ كان الاتجاهُ الطبيعيُّ الذي ينتظرُه هو فرنسا لمتابعة دراسته الجامعية، ولكنه لأَمْرٍ ما آثرَ التوجُّهَ إلى الولاياتِ المتحدة. وبعد عراكٍ طويل مع الإدارة الاستعماريةِ الفرنسيةِ استطاعَ الحصولَ على جوازِ سفرٍ والاتجاهَ إلى ولايةِ ألاباما من بين جميع الولايات! وهناك انغمسَ في الحياةِ الجامعيَّة، وفي الحياةِ الأمريكيَّةِ بكل جوارحه كما يفعلُ دائمًا مع أي مشروعٍ قريبٍ إلى نفسه... وبحيويتهِ وفضولهِ العلميِّ ودمائَةِ أخلاقهِ وحبِّهِ الفطريِّ للناس، وبجدِّه وروحه المرحةِ في نفس الوقت، استطاعَ كسبَ محبةِ جميعِ زملائهِ واحترامهم.

ووزَّعَ نشاطَه على الفرقِ الرياضيَّةِ والموسيقيَّةِ. فهو عازفٌ موهوبٌ للعود والساكسوفون. وشاركَ في النشاطِ الاجتماعيِّ لكليَّتِه حتى ما كان يدورُ منه داخلَ الكنيسةِ. فأحبَّه القُسُسُ وجميعُ الذينَ تعارفَ بهم من روّاد الكنيسةِ المتدينين. ولم يكنْ يخُفِي عليهم دينَه، وما كانَ يستطيعُ نظراً لوضوحِ ذلك في اسمه محمدٍ.

ويذكرُ أن فتاةً متدينةً مالَ قلبُهَا إليه، وحينَ عرفتْ أنه مسلمٌ، ولم تكنْ عرفتْ مسلمًا قبلَه، نظرتْ إليهِ بعطفٍ وإشفاقٍ كبيرين وقالت:

– خسارةٌ يا محمدٌ، أنكَ ستذهبُ إلى النارِ!

فقال متظاهراً بالجدِّ والحزنِ:

– أعرفُ! لذلكَ أوصيتُ بأَنْ يدْفِنُوا معيَ عدداً كافيًا من آلاتِ إطفاءِ الحريق وتكييف الهَواء!

وضحكتِ الفتاةُ ولكزتْه على ذراعِه:

– ألا تعرفُ الجدَّ أبداً!؟ هذا موضوعٌ لا يقبلُ المزاح!

فابتسمَ لها وقال:

– ما الذي يجعلُك تعتقدينَ أنني سأدخلُ النارَ؟

– أنتَ لستَ مسيحيًّا، أليسَ كذلك؟

– بَلَى، بلْ أنا مسيحيٌّ وأكثرَ!

– ماذا تعني؟

– أنا مسيحيٌّ بحكم إسلامي. فالمسلمُ لا يكونُ مسلمًا إلا إذا آمنَ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ. ومن رسلنا نحنُ المسلمينَ محمدٌ وعيسى وموسى عليهمُ السلام. ولا يصحُّ إسلامُ مسلمٍ إلا بالإيمانِ بالأديانِ السماويَّةِ الثلاثةِ.

ففوجئتِ الفتاةُ وانفتحَ فمُها لا إراديًّا. وحينَ تماثلتْ من المفاجأةِ قالت:

– يا إلهي! لم أكنْ أعرفُ ذلك!

وأخذتْ تعتذرُ عن جهلها وقلَّةِ أدبها. فقبلَ محمدٌ عذرَها وقال:

– في الواقعِ، الداخلُ إلى الإسلامِ من اليهودِ والنصارى لا يتركُ دينَه، بل يُضيفُ إليه عَهْدًا آخر. فكما أنَّ اليهوديةَ هي العهدُ القديمُ والمسيحيةَ هي العهدُ الجديدُ، فالإسلامُ إذنْ هو

العهدُ الأجدُّ! فهو آخرُ الرسالاتِ السماوِّيةِ، وقد بَشَّرَ به الأنبياءُ قبل ظهورِه. وفي القرآنِ ما يشيرُ إلى ذلك في الآيةِ الكريمةِ: ﴿ ... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

فاستوقفته قائلة:

– أرجو أن تنتظرَ حتى أستوعبَ كلَّ هذا وأَهْضِمَه!

* * *

وجاءتْ عطلةُ عيدِ الميلادِ فدعاهُ عشيرُه في الغرفةِ بالحيِّ الجامعيِّ إلى بيتِ أهلِه بتكساسَ. وكانَ العشيرُ ابنَ رجلٍ سياسيٍّ معروفٍ في المنطقةِ وله نُفوذٌ كبيرٌ في المدينةِ. وكانت العطلةُ حوالي تسعةِ أيامٍ، فسألَ محمدٌ مضيفَه:

– هل عندكمْ عملٌ لي؟ أنا لم أعتدْ على الراحةِ والعطلِ الطويلةِ!

وسمعَ الأبُ ذلك فقال له:

– لي صديقٌ له دكانٌ كبيرٌ لبيعِ الأحذيةِ، ولكنَّهُ يهوديٌّ. فهلْ عندكَ مانعٌ من العملِ معه؟

– لا، لا مانعَ بالمرة!

فلما سمع اليهوديُّ اسمَ محمدٍ تحَفَّظَ، فقال له المضيفُ:

– هذا عربيٌّ استثنائيٌّ. خذْه على مسؤوليتي. وإذا لم تتفقْ معه فما عليكَ إلا أنْ تُسَرِّحَهُ متى شئتَ.

وذهبَ محمدٌ أبوطالب إلى الدكانِ، وقابلَ صاحبَه الذي لم يصافحْه، وتسلَّم عملَه في الحال.

ولما كان محمدٌ أبوطالب من مدينهِ فاسٍ العريقةِ في التجارةِ عراقتَها في العلمِ والحُكْمِ، فقد دخلَ في دَوْرِ التاجرِ بسهولةٍ، رغمَ أنهُ لم يكنْ له سابقُ تدريبٍ. وعاملَ الناسَ بلُطفٍ وصِدقٍ لم يألَفوه في باعتِهم. لم يلمسِ الزبناءُ فيه تَهافُتَ البائعِ الأمريكيِّ على إقفالِ الصفقةِ بسرعةٍ لأخذِ العمولةِ والانتقالِ إلى الزبونِ التالي! كان محمدٌ ينصحُ الزبونَ أحيانًا بعدمِ أخذِ حذاءٍ إذا لم يرضَ هو عنه، ولو أعجبَ الزبونَ؛ لأنه في نظرِه غيرُ لائقٍ عليه، ويختارُ له حذاءً آخرَ أنسبَ. وكانَ يُداعبُ الناسَ ويلمسُهُمْ بطريقةٍ وُديَّةٍ تُذيبُ معهمُ الجليدَ...

وفي يومهِ الأولَ باعَ محمدٌ من الأحذيةِ أكثرَ مما باعَهُ زملاؤه وزميلاتُه، واستحقَّ على ذلكَ علاوةً خاصَّةً. وطبطبَ

صاحبُ الدكانِ على ظهرهِ سعيداً به، وقال له:

– لم أكنْ أعرِفُ أنَّ العربَ والمسلمينَ هكذا... فالإعلامُ هنا شَوَّهَ سمعتَكُم! أمَّا أنتَ يا محمدٌ، فأنتَ مسلمٌ استثنائيٌّ، ويمكنكَ أن تشتغلَ معيَ متى شئتَ، دكاني مفتوحٌ لكَ دائماً...

obeikandl.com